الباب السابع والعشرون

في المروءة

وقالوا في المروءة:

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «**كرم المؤمن دينه، ومروءته عقله ، وحسبه خلقه**».

وقال شاعر النيل حافظ إبراهيم:

إني لتطربني الخلال كريمة ... طرب الغريب بأوبة وتلاق
وتهزني ذكرى المروءة والندى ... بين الشمائل هزة المشتاق
فإذا رزقت خليقة محمودة ... فقد اصطفاك مقسم الأرزاق
فالناس هذا حظّه مال وذا ... علم وذاك مكارم الأخلاق
والعلم إن لم تكتنفه شمائل ... تعليه كان مطية الإخفاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده ... ما لم يتوج ربه بخلاق

وقيل لبعض الحكماء، ما أصعب شيء على الإنسان؟. قال: أن يعرف نفسه، ويكتم الأسرار، فإذا اجتمع الأمران واقترن بشرف النفس علو الهمة كان الفضل بهما ظاهراً والأدب بهما وافراً، ومشاق الحمد بينهما مسهلة،وشروط المروءة بينهما متينة.

وقال الشاعر:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هواناً بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن ... عليك لها فأطلب لنفسك مسكنا
وإياك والسكنى بمنزل ذلة ... يعدّ مسيئاً فيه من كان محسنا

وقال وحيد الدين خان في كتابه البعث الإسلامي، إن أولئك الذين نشؤوا في جزيرة العرب، وشبوا في الكثبان الرملية، والصحاري القاحلة الجدباء كانوا يتمتعون بميزات يمكن تلخيصها في كلمة واحدة هي: (المروءة).

وقال الحصين بن المنذر الرقاشي:

إن المروءة ليس يدركها امرؤ ... ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا ... ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فإذا أصاب من المكارم خلة ... يبني الكريم بها المكارم باعها

وقال بعضهم: الكامل المروءة من حصن دينه، ووصل رحمه، وأكرم أخوانه وعفا عن من ظلمه، وأحسن إلى من أساء إليه.

وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة، فقال: العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأخلاق.

وقال الماوردي: ولن تجد الأخلاق على ما وصفنا من حدّ المروءة منك باقية، ولا عن المراعاة مستغنية، وإنما المراعاة هي المروءة، لا ما انطبعت عليه من فضائل الأخلاق،لأن غرور الهوى،وتنازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب الأفضل من خلائقها،والأجمل من طرائقها، وإن سلمت منها وبعيد أن تسلم إلّا لمن استكمل شرف الأخلاق طبعاً، واستغنى عن تهذيبها تكلّفاً وتطبّعاً.

وقال الشاعر:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه عسير

وقال أحد الحكماء: وتنتظم المروءة أخلاقاً سنيّة وآداباً مضيئة. ورسوخ هذه الأخلاق والآداب في النفس يحتاج إلى صبر ومجاهدة، ودقة وملاحظة وسلامة ذوق.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت:جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منها تمرة ورفعت الثالثة إلى فيها لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد ان تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال : «**إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار**».

وقد ضرب الرسول الكريم ﷺ المثل الأعلى في المروءة ، فعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ، فألقى إليّ وسادة حشوها ليف، فلم أقعد عليها وبقيت بيني وبينه.

وقال أحدهم عن المروءة: مروءة الرجل صدق لسانه،واحتمال عثرات جيرانه، وبذل المعروف لأهل زمانه، وكفّ الأذى عن أباعده وأقرانه.

إن المروءة من الصفات الحميدة المحمودة المحببة لدى الناس، ومن لا مروءة له لا دين له، وينال المرء بمروءته ما لا يناله بقوّته، لأن المروءة تخاطب الأرواح، والقوّة تخاطب الأشباح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَلَ نجد،فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ، فقال: (ما عندك يا ثمامة)؟ فقال :عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت.

فترك حتى كان الغد ثم قال له: (ما عندك يا ثمامة)؟ فقال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد،فقال له: (ما عندك يا ثمامة)؟. فقال ثمامة: عندي ما قلت لك.

فقال النبي ﷺ: «**أطلقوا ثمامة**». فلما أطلق انطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

يا محمد والله، ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ، وإن خيلك أخذتني، وأنا أريد العمرة فما ترى؟.

فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة المكرمة، قال له قائل: صبوت يا ثمامة؟. قال: لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ.

وعن يحيى بن سعيد، أن عمر بن الخطاب ﷺ قال:كرم المؤمن تقواه، ودينه حسبه، ومروءته خلقه، والجرأة والجبن غرائز يضعها الله حيث شاء، فالجبان يفرّ عن أبيه وأمه، والجريء يقاتل عمّا لا يؤوب به إلى رحله،والقتل حتف من الحتوف، والشهيد من احتسب نفسه على الله.

وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري: (خذ الناس بالعربية، فإنه يزيد في العقل ،ويثبت المروءة).

ويحكى أن معاوية بن أبي سفيان، سأل عمرو بن العاص عن المروءة؟ فقال عمرو: المروءة تقوى الله تعالى، وصلة الرحم، وسأل المغيرة عنها؟. فقال المغيرة: هي العفة عمّا حرّم الله تعالى، والحرفة فيما أحلّ الله تعالى. وسأل معاوية ابنه يزيد عن المروءة؟.

فقال يزيد: هي الصبر على البلوى، والشكر على النعماء، والعفو عند المقدرة، فقال معاوية حينئذ: أنت مني حقاً استحساناً لقوله.

وقال أحد الشعراء:

وكنت إذا صحبت رجال قوم صحبتهمُ وشيمتيَ الوفاء
فأحسن حين يحسن محسنوهم وأجتنب الإساءة إن أساؤوا
وأبصر ما يعيبهم بعين عليها من عيوبهم غطاء
أريد رضاهمُ أبداً وآتي مسيئتهم وأترك ما أشاء

وقال مسروق: كان يقال مجالسة أهل الديانة تجلو عن القلب صدأ الذنوب، ومجالسة ذوي المروءات تدل على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تذكي القلوب. وسئل الأحنف بن قيس التميمي عن المروءة؟ فقال: المروءة صدق اللسان، ومواساة الإخوان، وذكر الله تعالى في كل مكان.

حلم الرسول ﷺ:

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فلما أدركته القائلة، وهو في واد كثير العضاة فنزل تحت شجرة واستظل بها، وعلق سيفه، فتفرق الناس في الشجر يستظلون.

فبينما نحن كذلك، إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا، فإذا أعرابي قاعد بين يديه، فقال: (إن هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي فاستيقظت وهو قائم على رأسي مخترط سيفي صلتاً، قال: ما يمنعك مني؟ قلت: الله، فشامه ثم قعد فهو هذا. ولم يعاقبه رسول الله ﷺ.

أقسام المروءة:

ولقد قسم بعض الناس المروءة إلى ثلاثة أقسام:

فقال القسم الأول: مروءة المرء مع نفسه، وهي أن يحملها قسراً على فعل ما

يجمل ويزين، وترك ما يقبح ويشين، ليصير لها ملكة في السرّ والعلانية فلا يفعل خاليا ما استحيا من فعله في الملإ إلا ما لا يحظره الشرع الشريف والعقل.

القسم الثاني: مروءة المرء مع الخلق، وذلك بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء، والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه.

القسم الثالث: المرء مع الحق سبحانه وتعالى، ويكون ذلك بالاستحياء من نظره إليك واطلاعه عليك، في كل خاطرة تخطر من نفسك، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان، لأنه سبحانه وتعالى قد اشتراها منك وأنت تسعى في تسليم المبيع، وليس من المروءة أن تسلم المبيع معيباً، فالمقابل عظيم: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾. [سورة آل عمران: ١٣٣].

وقالوا: حدّ المروءة: استعمال ما يجمّل العبد ويزيّنه، وترك ما يدنّسه ويشينه، سواء تعلّق ذلك به وحده، أو تعداه إلى غيره.

وقالوا: من شرائط المروءة أن يتعفّف المرء عن الحرام، وأن ينصف في الحكم، وأن يكفَّ عن الظلم، وأن لا يطمع فيما لا يستحق، وأن لا يعين قوياً على ضعيف، وأن يؤثر دني الأفعال على شريفها، وأن لا يسر ما يعقب الوزر والإثم، وأن لا يفعل ما يقبح الإسم والذكر.

وقال الشاعر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قتال
وإنما يبلغ الإنسان طاقته ... ما كل ما شية بالرجل شملال
إنا لفي زمن ترك القبيح به ... من أكثر الناس إحسان وإجمال
ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ... ما قاته وفضول العيش أشغال

وعن شهاب بن عبّاد أنه سمع بعض وفد عبد القيس، وهم يقولون: قدمنا على رسول الله ﷺ، فاشتدّ فرحهم بنا، فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا فقعدنا، فرحّب بنا النبي ﷺ ودعا لنا، ثم نظر إلينا فقال: (من سيّدكم وزعيمكم؟).

فأشرنا جميعاً إلى المنذر بن عائذ، فقال النبي ﷺ: (أهذا الأشج؟)، فكان أول يوم وضع عليه هذا الإسم، لضربة بحافر حمار، قلنا: نعم يا رسول الله، فتخلّف

بعد القوم، فعقل رواحلهم وضم متاعهم، ثم أخرج عيبته فألقى عنه ثياب السفر، ولبس من صالح ثيابه، ثم أقبل إلى النبي ﷺ، وقد بسط النبي رجله، واتكأ، فلما دنا منه الأشج أوسع القوم له، فقالوا :هنا يا أشج، فقال النبي ﷺ،واستوى قاعداً وقبض رجله: «**هنا يا أشج**».

معاملة الرسول لوفد عبد القيس:

فقعد عن يمين رسول الله ﷺ، فرحّب به، ولاطفه، وسألهم عن بلادهم، وسمّى لهم بعض قراهم تأنيساً لهم من قرى هجر،فقال: بأبي وأمي يا رسول الله لأنت أعلم بأسماء قرانا منا،فقال النبي ﷺ: «**إني وطئت بلادكم وفسح لي فيها**». قال: ثم أقبل على الأنصار فقال: «**يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم، فإنهم أشباهكم في الإسلام أشبه شيء بكم أشعاراً وأبشاراً أسلموا طائعين،غير مكرهين ولاموتورين، إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قتلوا**».

قال : فلما أصبحوا، قال النبي ﷺ: «**كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم، وضيافتهم إياكم؟**». قالوا: خير إخوان ألانوا فراشنا وأطابوا مطعمنا، وباتوا وأصبحوا يعلموننا كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبينا ﷺ، فأعجب النبي ﷺ، وفرح بها، ثم أقبل علينا رجلاً رجلاً يعرضنا على من يعلمنا، وعلمنا فمنا من علَّم التحيات وأم الكتاب والسورة والسورتين والسنن.

فأقبل علينا بوجهه، فقال: (هل معكم من أزوادكم؟)، ففرح القوم بذلك وابتدروا رواحلهم، فأقبل رجل منهم معه صرة من تمر فوضعها على نطع بين يديه، وأومأ بجريدة في يده كان يتخصّر بها فوق الذراع، ودون الذراعين فقال :تسمّون هذا التعضوض؟ قلنا: نعم. ثم أومأ إلى صرّة أخرى، فقال: تسمّون هذا الصرفان؟ قلنا: نعم. ثم أومأ إلى صرة أخرى فقال: تسمون هذا البرني؟ قلنا: نعم.

فقال النبي ﷺ: «أما إنه من خير تمركم وأنفعه لكم»، قال فرجعنا من وفادتنا تلك، فأكثرنا الغرز منه، وعظمت رغبتنا فيه حتى صار أعظم نخلنا وتمرنا البرني.

من مواقف المروءة:

يحكى أن ثلاثة من الشباب جاؤوا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، وهم يمسكون برجل وقالوا: يا أمير المؤمنين، هذا الرجل قتل والدنا، ونريد حقّنا منه.

فسأله أمير المؤمنين عن ذلك، فاعترف بأنه قتل والدهم، ولكنه طلب أمهاله مدة ثلاثة أيام، حتى يرجع إلى أهله وأولاده، ليخبرهم بثروة مدفونة لايعلمها غيره، فقالوا من يضمنك حتى ترجع، فقال المتهم هذا يضمنني وأشار على الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري ﷺ فضمنه.

فقاربت المدة المحددة على الانتهاء، وهي الثلاثة الأيام التي طلبها المتهم، وكاد أبو ذر ﷺ أن يقتل بضمانه للرجل، وفي آخر لحظة وصل الرجل، وعليه غبار الطريق، ومشقّة السفر فلما حضر الرجل قال له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: لم حضرت، وقد كان بإمكانك أن تهرب؟. فقال الرجل المتّهم، الخوف من الله، ومن أن يقال ذهب الوفاء بالعهد والوعد.

ثم قال أمير المؤمنين عمر لأبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه: وأنت يا أبا ذر لم ضمنته حين طلب منك ذلك ولم تكن تعرف الرجل؟ فقال أبو ذر: لقد ضمنته حتى لا يقال ذهب أهل المروءة والكرم، فقال أبناء القتيل: ونحن قد عفونا وسامحنا حتى لا يقال ذهب أهل العفو والمغفرة.